

الفصل الرابع

الصهيونية فى العصور الوسطى

مع إحساسهم بتفوقهم العنصرى ،
أو هكذا بدا لهم فلم يكن فى مقدورهم
إحداث تغيير إيجابى مؤثر فى واقعهم
فتفوقوا فى « الغيتوات » وفى داخل
أنفسهم ونتج عن ذلك أنهم صاروا
أصحاب نفوس مريضة تضع أوزارها على
كاهل « ياهو » إلههم ، ومنذ تفكير عزرا
بذلك صار « ياهو » إلهًا قومياً لليهود ،
كما صارت اليهودية ديانة قومية ، كمنت
فيها جرثومة صراعهم العنصرى مع كل
الشعوب والديانات .

الفصل الرابع

الصهيونية فى العصور الوسطى

تمتد العصور الوسطى من القرن الخامس الميلادى ، إلى القرن الخامس عشر الميلادى وفى هذه القرون ، كان أغلب يهود الشتات يعيشون فى أوربا ، فبعد أن أنهت الإمبراطورية الرومانية تاريخهم فى فلسطين توزعوا فى أنحاء كثيرة من العالم ، ولكن ظلت أوربا مستقرهم الأساسى .

كانت الإمبراطورية الرومانية تعامل اليهود على أنهم رابطة Collegium من حقهم أن يقيموا شعائهم الدينية .

وفى سنة ٢١٢م أصدر الإمبراطور (كارا كالا) مرسومًا يمنح كل الأحرار فى الإمبراطورية حق المواطنة الرومانية ، وبهذا المرسوم صار أغلب اليهود مواطنين رومانيين ، إلا أنه تنوسى هذا المرسوم سريعًا ، فعوملوا كغرباء ، وأساء الرومان معاملتهم ، وساءت أحوالهم .

ولما دخلت الإمبراطورية الرومانية فى المسيحية ، وصار للمسيحية نفوذ فى الغرب ، توقفت اليهودية ، وانطوى اليهود على أنفسهم ، وفى الوقت نفسه كان علماء اليهود يكرسون أنفسهم فى كتابة « التلمود » وجمعه ، وتعبئته بحقد أسود على المسيح والمسيحية ، فكان هذا المسلك العقدى من اليهود أس البناء الصهيونى فى العصور الوسطى .

وفى الفترة من سنة ٣١٢ - ٣٣٧م أصدر الإمبراطور تشريعات تنظم وضع اليهود فى الإمبراطورية الرومانية ، وبمقتضاها لم يعد الدين اليهودى دينًا مباحًا ، أو رابطة لجماعة من حقها أن تمارس شعائر دينية لدين خاص بها ، ولكن قضت هذه التشريعات بأن اليهودية مذهب شنيع شائن ، ومن ثم يحظر على اليهود الزواج من المسيحيين ، أو امتلاك عبيد مسيحيين أو غير مسيحيين ، كما تم استبعادهم من العمل بالزراعة ، ومن الخدمة العسكرية ، ومنعهم من الاشتغال بالمهن المعروفة كمهنة الطب .

وفى سنة ٤٣٩م صدر قانون ثيودوريوس الثانى Theodosian Code الذى يحرم على اليهود شغل وظائف بالدولة .

وهكذا حكمت روح الرومان التعسفية يهود الإمبراطورية ، وحكمت روح الكراهية لليهود فى نظرتهم إلى حاكميهم من المسيحيين ، الأمر الذى عبأ اليهود فى أنحاء الإمبراطورية بالصهيونية ، وساعد على استمرارها ودوامها فى العقل اليهودى .

وفى سنة ٤٧٦م سقطت الإمبراطورية الرومانية أمام زحف قبائل الشمال وفى هذه المرحلة ازدادت أحوال اليهود سوءاً خاصة بعد أن أعلن (السهندرين) أن المسيح ليس الماشيح اليهودى الحقيقى ، وأن الذى سيأتى فى آخر الزمان ، هو المسيح الدجال ، وفى الوقت نفسه رأى المسيحيون أن هدم الهيكل ، إنما كان تحقيقاً لنبوءة عودة المسيح (١) .

وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية حرم مجلس (كلير منت Clerment) فى سنة ٥٣٥م ومجلس طليطلة فى سنة ٥٨٩م تعيين اليهود فى مناصب يكون لصاحبها حق توقيع عقوبة على المسيحيين ، كما حرم مجلس (أورليان) فى سنة ٥٣٨م استخدام اليهود فى شغل المناصب العامة .

وفى سنة ١٠٩٩م لما سقطت فلسطين فى أيدي الصليبيين جمعوا ما كان بها من اليهود وأحرقوهم .

وفى سنة ١١٧٩م حرم مجلس (لاتيران Laterans) الثالث على القابلات المسيحيات أن يخدمن عند اليهود .

وأصدر مجلس أفينون Avignon فى سنة ١٢٠٩م قوانين الطهارة بتحذير اليهود والعاهرات من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ، وأعادت القوانين الكنسية الصادرة التى تحرم استئجار اليهود خدماً للمسيحيين والتى تحظر على المسيحيين تبادل الخدمات مع اليهود تجنباً لنجاستهم ، وإلغاء كل زواج تم بين مسيحيين ويهود .

(١) المسيرى : اليهود فى عقل هؤلاء ، ص ٩ .

وفى سنة ١٢١٥م أصدر مجلس لاتيران الرابع قراراً يحتم على اليهود تثبيت شارة صفراء اللون فى مكان ظاهر فى ملابسهم لتمييزهم عن المسيحيين .

وفى سنة ١٢٤٣م أحرق جميع سكان (بلتز Belitz) الواقعة غربى برلين - من اليهود ، لأنهم دنسوا خبزاً مقدساً .

وفى سنة ١٢٤٦م ندد مجلس (بيزير Beziers) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود .

وفى أثناء اضطرابات الحروب الأهلية فى إنجلترا فيما بين سنتى ١٢٥٧م وسنة ١٢٦٧م كادت المذابح تمحو يهود إنجلترا ، ثم أمر إدوارد الأول ملك إنجلترا بترحيل من كان باقياً من اليهود ، وكان عددهم ١٦٠٠ يهودى فغادروا البلاد فى سبتمبر ١٢٦٧م مجردين من أملاكهم وأمتعتهم .

وفى سنة ١٢٩١م أصدرت الحكومة الفرنسية مرسوماً يفرض على اليهود مغادرة فرنسا قبل بداية الصوم الكبير ، ثم سمح لهم بدخولها فى فترة لاحقة - وبينما كانوا يعيدون بناء جماعتهم ، أمر فيليب الجميل فى سنة ١٣٠٦م بمصادرة ما كان لهم من ديون على الفرنسيين ، كما صادر جميع أموالهم ومتاعهم إلا ما كان من ثياب وطعام ليوم واحد .

وفى سنة ١٤٩٢م تم طرد اليهود والعرب من إسبانيا كلها ، ثم طردوا من البرتغال فى سنة ١٤٩٧م ، وكان عددهم مائة وخمسين ألف يهودى ، لجأ أغلبهم إلى العالم الإسلامى ، خاصة فى شمال إفريقيا ، وبلاد الدولة العثمانية .

ولم ينج من اليهود من مذابح الأوربيين إلا الذين عاشوا فى إيطاليا وكانوا أقلية ، لأن الفاتيكان اعتبر اليهود الشعب الشاهد على ظهور المسيح ، ولكنهم مع ذلك وضعوا فى مكان خاص بهم أطلقوا عليه لفظ (الغيتو Ghitto) أى المعزل .

ومع ما أصاب اليهود من أهوال المذابح الأوربية ، ومع أنهم بقوا جسماً غريباً فى البلاد الأوربية ، فقد حققوا ثراء وملكوا الأموال من التجارة والمراباه ، وحافظوا على ذاتية عنصرهم فى أحوال كثيرة ضد الفناء والذوبان فى الأغيار .

ولقد ساعدتهم على عدم التجانس مع هذه المجتمعات أن البلاد الأوربية لم تكن تسيطر عليها حكومات مركزية ، وكان الإقطاعيون هم المسيطرون ، فكان النبلاء يملكون الأقان ، والإقطاعيات والجيش التى يحافظون بها على إقطاعاتهم ، وفى ذات الوقت كان التجار يشكلون مجالس البلديات ، وكان القساوسة تابعين للكنيسة البابوية فى روما ، وكانت كل جماعة من هذه الفئات تتمتع باستقلالها الذاتى ، ولم يكن اليهود أعضاء فى أى من هذه الجماعات ، ولا منتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية ، ولذلك فقد صدرت المراسيم التى اعتبرتهم غرباء فى كل البلاد الأوربية التى كانوا يحلون بها .

ولأن اليهود لم يكن لهم حق امتلاك الأرض أو العقار ، أو العمل بالزراعة والصناعة ، فقد فرض عليهم ألا يكونوا إلا رجال مال ، وكان يطلق عليهم (أقان بلاط) أى عبيد بلاط ، إذ كانوا يتبعون الملك والأمراء مباشرة ، وكانت الضرائب التى تفرض عليهم تقدر بقدر ما يمنحهم الملك أو الأمير من امتيازات يحققون بها مكاسبهم المالية .

وقد استخدم مفهوم (أقان بلاط) لأول مرة بمرسوم فريدريك الأول فى سنة ١١٥٧م ثم أكده فريدريك الثانى فى سنة ١٢٣٦م « (١) .

ومع أن هذه المراسيم جعلتهم جماعات منغلقة إلا أنها حققت لهم حرية التجارة والتعامل بالربا ، واستغلال فقراء الناس من الأوربيين .

ومع أن اليهود عاشوا مكروهين من الشعوب ، وكانوا دائماً معرضين للمهانة ، لكنهم ظلوا عنصرين متمسكين بتعاليم عزرا التى جعلتهم على الدوام منغلقيين على أنفسهم لا يختلطون بغيرهم ، ولقد رسخ هذا الانغلاق ، وهذه العزلة فيهم منذ الأسر البابلى ، وبعد العودة منه ، عدم الرغبة فى معايشة الآخرين أو مشاركتهم الحياة .

ولكن عزرا مع هذا ألزم الذين لم يرغبوا فى ترك المنفى ، لأنهم يعيشون حياة أرغد - بالتبرع لإعانة العائدين يقول عزرا : « جميع ممالك الرب دفعها لى الرب

(١) المسيرى : اليهود فى عقل هؤلاء ، ص ١٤ .

إله السماء ، وهو أوصانى أن أبني له بيتًا فى أورشليم التى فى يهوذا ، وكل من
بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب فليجد أهل مكانه بفضة أو بذهب ،
وبأمتعة وببهاء مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم » (عزرا ١/٣ - ٤) .

بهذا حدد عزرا ما سيكون خصوصية يهودية ، سواء لمن عادوا من المنفى ،
أو الذين بقوا فى الشتات ، وفرض عليهم مساعدة من عادوا إلى فلسطين .

أما كيف فرض عزرا عليهم العزلة وعدم الاختلاط ؟

فعل ذلك عزرا بصيغة دينية فقال لهم : إن ذلك بحكم الرب ، لذلك لما تقدم
رؤساء القبائل الأخرى بفلسطين لمساعدة العائدين من السبي ، بمشاركتهم فى بناء
بيت الرب ، رفضوا ذلك منهم فقالوا : « بنى معكم لأننا نظيركم نطلب إلهكم
وله قد ذبحنا . فقال لهم رؤوس آباء إسرائيل : ليس لكم ولنا أن نبني بيتًا لإلهنا،
ولكننا نحن وحدنا نبني للرب إله إسرائيل » (عزرا ٤/٢ - ٤) .

ويؤخذ من سفر عزرا - بصفة عامة ما يلى :

١ - الذين عادوا من المنفى إلى أرض الميعاد ، عليهم إقامة البناء (الدولة
اليهودية) .

٢ - الذين لم يعودوا من المنفى ، وبقوا فى الشتات عليهم نجدة الذين عادوا
بالتبرع بالمال والمتاع ، والطعام لبيت أورشليم (الشعب اليهودى) .

٣ - رفض دخول غير اليهود فى الشعب اليهودى ، وعدم قبول مشاركتهم فى
الأرض (الوطن القومى) ، والعيش معهم فى سلام .

وهذه الأسس هى ذاتها قوانين عزرا فى الإصحاح التاسع من السفر نفسه
قال : لما كملت بناية بيت الرب : « تقدم إلى الرؤساء قائلين : لم ينفصل شعب
إسرائيل والكهنة ، اللاويون من شعوب الأراضى حسب رجاستهم من الكنعانيين،
والحيثيين ، والغريزيين ، واليبوسيين ، والعمونيين ، والمؤابيين ، والمصريين ،
والأموريين ، لأنهم اتخذوا من نسائهم ولأنفسهم ولبنينهم ، واختلط الزرع المقدس
بشعوب الأرض » (عزرا ٩/١ - ٢) .

فقد شق على عزرا أن يختلط العنصر اليهودي بغيره من طريق الزواج لأن غيرهم نجس - حسبما صورت له نفسه الكارهة لغير اليهود ، وزرع اليهود [نسلهم] مقدس فلا يجب أن يختلط بغيره - هكذا رأى عزرا ولهذا قال هو نفسه : « والآن فماذا تقول يا إلهنا بعد هذا ؛ لأننا قد تركنا وصاياك التي أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء قائلًا : إن الأرض التي تدخلون لتملكوها هي أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضي ، برجاستهم التي ملأوها بها من جهة إلى جهة بنجاستهم . والآن فلا تعطوا بناتكم لبنينهم ، ولا تأخذوا بناتهم لبنينكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض - وتورثوا بنينكم إياها إلى الأبد ، وبعد كل ما جاء علينا لأجل أعمالنا الرديئة وآثامنا العظيمة لأنك قد جازيتنا يا إلهنا أقل من آثامنا ، وأعطينا نجاة كهذه أفعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات » (عزرا ٩/١٢ - ١٥) .

لقد ترسخ فيهم أنهم شعب فوق كل الشعوب - كما جاء في سفر عزرا ، وكما جاء في سفر إشعيا : « هكذا قال السيد الرب ها إنى أرفع إلى الأمم يدي ، وإلى الشعوب أقيم رايتي فيأتون بأولادك في الأحضان ، وبناتك على الأكثاف يُحملن ، ويكون الملوك حاضنك ، وسيداتهم مرضعتك ، بالوجه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك » (إشعيا ٤٩/٢٢ - ٢٣) .

كان أول تبلور حقيقي لمبادئ عزرا الصهيونية في حياة (الغيتو) التي عاشوها في القرون الوسطى ، فقد كانت تحقيقًا لرغبة دفينه فيهم لتعزيز صهيونيتهم ، وإبراز عنصريتهم النفسية ، واستجابة للحكومات التي رأت أن في اجتماعهم بمكان واحد يحقق مصلحة سهولة التعرف عليهم ، والوصول إليهم .

وكان الإيطاليون أول من حقق لهم هذه الرغبة فسمحوا لهم بتأسيس أول (غيتو = Ghetto) في مدينة البندقية سنة ١٥١٦م ثم انتشرت بعد ذلك الغيتوات في مدن أوروبا الكبرى ، وكان الغيتو بمثابة دولة داخل الدولة التي يعيشون فيها ، ولقد اعترفت بعض المدن الأوروبية المهمة بهذا المفهوم ^(١) . ففي مدينة (براغ) كانوا يسمون الغيتو دولة اليهودية Juden Stat .

(١) خالد القشطيني : الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية ، ص ١٧ .

وكان انعزالهم فى الغيتو من العوامل المهمة التى أبرزت المسألة اليهودية ، فى كتابات المفكرين من اليهود ، ومن غيرهم فى أوروبا ، ومن الغيتو خرجت مصطلحاتهم الدينية ذات الدلالات السياسية والاجتماعية فى (الجالوت = المنفى) و(نجيد = رئيس اليهود) و(قهاال = مؤسسة يهودية إدارية . . . إلخ) .

ولما جاء عصر التنوير ، ثم الثورتين : الأمريكية والفرنسية فى القرن ١٨ انهدم الغيتو وتحول اليهود إلى مواطنين مندمجين ، وإن ظلوا يفرزون أفكاراً دينية ذات مدلول سياسى فرضت نفسها على مسيرة اليهود بصفة عامة والحركة الصهيونية بصفة خاصة على الوجه التالى :

١ - فى الأسر البابلى دعا إرميا إلى دمج اليهود فى الشعب البابلى ، وقبول التعايش معه ، وقد لى أغلبية يهود الأسر هذه الدعوة ، وذابوا فى الشعب البابلى وزاوجوهم .

٢ - دعا عزرا إلى العودة إلى فلسطين ، وكرس حياته لكتابة التوراة على أساس أنه يعظم العرق اليهودى، ووضع القوانين التى عرفت بقوانين عزرا ، وأهم ما جاء فيها تحريم الاندماج مع غير اليهود، وتأكيد أهمية توريث الدم اليهودى .

وصارت قوانين عزرا القاعدة الأساسية للتلمود التى عززت النظرة العنصرية فى معاملة غير اليهود ، معاملة مغايرة لمعاملة اليهودى مع غير اليهودى ، وقد أشار ماكس فيير عالم الاجتماع اليهودى إلى « أن عزرا وضع بعد العودة إلى أرض فلسطين ما يمكن تسميته بقانون عزل اليهود عن الآخرين (١) .

كما أن عزرا استطاع أن يصور حقيقة مشاعر اليهود نحو غيرهم فى انفرادهم بأنهم ورثة إبراهيم عليه السلام ، وأنهم شعب الله المختار للأرض الموعودة ، بالقرب من جبل صهيون، وهى المشاعر التى ظلت ملازمة للعقل اليهودى وقبلته له إلى الآن .

٣ - إن اليهود حافظوا على هويتهم ، وتمسكوا بزعم العرق المتفرد سواء كانوا من أبناء يعقوب ، أو من الخزر ، أو من اليمن أو الهند أو الفلاشا .

(١) خالد القشطينى : المرجع السابق ، ص ١٣ .

٤ - تشبه دعوة (مندلسون) الإصلاحية ، اليهود إلى الاندماج مع الشعوب الأوربية التى يعيشون فيها ، بدعوة إرميا إلى الاندماج فى الشعب البابلى قديماً .

٥ - وما أشبه (تيودور هرتزل بـ عزرا) فى تأكيد كل منهما لحلم صهيون بتجميع اليهود فى وطن قومى لليهود .

ولا تزال قوانين عزرا تسيطر على العقل اليهودى وروحه حتى الآن : للمتدين أو للعلمانى على السواء ، فهو لا يزال يسير بهدى مواقفه القديمة يقول بن جوريون الصهيونى العلمانى : « إنه لشعور مدهش يتبأنى كحفيد لتلك القبائل التى أصبحت رماحها ونبالها وأقواسها موضع العجب ، لقد شعرت بأنى أكتب فصلاً جديداً فى التوراة هنا فى هذا المكان، فصلاً عظيماً خيالياً مثل جميع الفصول السابقة ، أورشليم ، وحبرون ، وسخيم ، ووادى نحسون ، وجميع الأراضى الموعودة » (١) .

ومع أن قلة قليلة جداً من يهود الشتات عادت إلى فلسطين ، فقد أثرت الغالبية العظمى البقاء فى الشتات ، ولكن أيضاً تدعم بمالها يهود العودة ، بل إن كثيرين من يهود العودة فضلوا السير فى ركاب الفاتحين مثل (قورش الفارس) فلما سقطت الإمبراطورية الفارسية ، استقروا فى البيئات الهلينية وكونوا بها جاليات كبيرة مثل جالية الإسكندرية ، وجالية روما ، ولم يكن مبعث تنقلهم فى ركاب السادة الفاتحين ، التشيت الإجبارى (الدباسيورا) بل الهجرة الاختيارية بدافع المغريات الاقتصادية » (٢) .

وهؤلاء الذين ظلوا فى الشتات منذ زمن عزرا إلى اليوم يمثلون حصن القومية اليهودية ودعامتها الاقتصادية والسياسية ، وخير مثال معاصر دور يهود الولايات المتحدة فى دعم الكيان الصهيونى مالياً وسياسياً وعسكرياً ، وعقدياً .

ومن زمن الأسر البابلى حتى وصول الرومان إلى المنطقة العربية - زهاء

(١) خالد القشطينى : المرجع السابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ نقلاً عن منشورات كيبوتز عين هارود .

(٢) فؤاد محمد شبل : مشكلة اليهود العالمية دراسة تحليلية لآراء توينبى ، ص ١٦ ، المكتبة الثقافية، العدد ٢٤١ فى مايو ١٩٧٠ م .

ستمائة سنة حاول اليهود بعث تأسيس مملكة داود، فكانت محاولاتهم تبوء بالفشل وتشيتت جديد ، ومن هنا تطورت صورة المؤسس لهذه المملكة ، فلم يعد ملكًا ، بل صار مسيحا ، ثم صار الإله نفسه ليتولى دور مخلص اليهود ، ومؤسس دولتهم الذى يجعل اليهود سادة الشعوب ، ويجعل سائر الشعوب عبيدًا لهم . (إشعيا ٤٩/٢٢ - ٢٣) تحذوهم صفاتهم التى لم يقدروا على التخلص منها مثل :

١ - إحساس عميق بالمهانة أصاب النفس اليهودية .

٢ - الآثار النفسية ، بسبب إحساسهم بأنهم عنصر غير مقبول ، سيئ الطوية خبيث المقصد ، يجيد استغلال أهل البلاد الأصليين ، خاصة الفقراء منهم .

وفى القرون الحديثة فى القرن ١٧ تحديدًا بلغ الغرب الأوروبى حدًا كبيرًا من الثراء الاقتصادى والثقافى ، جعله لا يخشى من مهارة اليهود فى أعمال المال والمراعاة ، ففتحت لهم إنجلترا أبوابها فى أثناء حكم كرومويل (١٦٥٣ - ١٦٥٨م) وهى البلد التى طردوا منها فى زمن أدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧م) وكانت هجرتهم إلى إنجلترا فاتحة هجرة إلى الغرب الأوروبى فى القرن ١٧ ثم إلى الولايات المتحدة ، وكانت هذه الهجرة من اليهود الأشكناز فى الغالب - وكانوا يتميزون عن السفارديم بالقدرة على الحركة والتقدم فى مجالات المال والتنظيم والسياسة ، كما كانت لهم القدرة على السيطرة على مقدرات اليهود فى الشتات فى أوربا والولايات المتحدة ، وهم الذين حافظوا على طبيعة العناصر النفسية المكونة للشخصية اليهودية .

وكانت البروتستانتية بمثابة انفراجة ليهود أوربا ؛ إذ فتحت البلاد البروتستانتية أبوابها للهجرة اليهودية ، لأنها نظرت إلى اليهود على أساس أنهم من ضحايا الاضطهاد الكاثوليكي خاصة إنجلترا وهولندا - تم هذا قبل الثورة الفرنسية التى رفعت شعار العقل والاستنارة ، والمساواة بروح علمانية ، فأفسحت المجال لليهود لكى يجدوا لأنفسهم مكانًا مرموقًا فى الغرب ، وتدفقت الهجرات اليهودية من الشرق الأوروبى إلى الغرب الأوروبى ؛ لأن كل الأحداث العظمى فى القارة الأوربية تؤذن بأن ناصية العالم ستكون فى قبضة الغرب ، ومنذ سنة ١٨٨١م لم

تتوقف الهجرة من روسيا وبولندا وليتوانيا وكانت هذه البلاد تعد خزان اليهود الكبير ، ثم بعد ذلك توجهت موجات الهجرة إلى الولايات المتحدة .

وفى كل الأحوال فإن اليهود - منذ الأسر البابلى حتى القرن العشرين ، كانوا على مستويات هي :

١ - قوم مكروهون يستحقون الاضطهاد .

٢ - كان أهل البلاد يضطهدونهم ، ولكن كانوا يحتاجون إليهم لكى يقوموا بأعمال يجيدونها ، كأعمال المال والتجارة ، والربا .

٣ - أنهم كانوا خطراً ؛ لأنهم قاموا بإدارة أعمال سوداء ، وإثارة القلاقل .

ومع إحساسهم بتفوقهم العرقى ، أو هكذا بدا لهم ، فلم يكن فى مقدورهم إحداث تغيير إيجابى مؤثر فى واقعهم فتقوقعوا فى (الغيتوات) وفى داخل أنفسهم ، ونتج عن ذلك أنهم صاروا أصحاب نفوس مريضة تضع أوزارها على كاهل (ياهو) إلههم دون العالمين ، ومنذ تفكير عزرا بذلك صار (ياهو) إلها قوميا لليهود ، كما صارت اليهودية ديانة قومية ، تميزهم على سائر الشعوب ، وفيها كمنت جرثومة صراعهم العنصرى مع بقية الشعوب والديانات ، ومع أنهم أخذوا عن المصريين التوحيد بحسب ديانة (آتون) وعادة (الختان) إلا أن التوراة تصورهم شعباً أرقى من المصريين ، مما أدى إلى اضطهادهم وإخراجهم من مصر ، ثم بعد عدة قرون تعرضوا للأسر الآشورى ثم البابلى ، ثم وقعوا تحت الحكم الفارسى ثم الرومانى الذى بثهم فى العالم الهللىنى ثم الرومانى ، وعندما جاءت المسيحية حاولوا قتل المسيح ، فصاروا أعداءها ، ومع كل هذا اعتقدوا بأن إلههم سيمنحهم الخلاص ، وبأنهم سيملكون رقاب البشر ، كما فى سفر إشعيا (٢٢ / ٤٩ - ٢٣) فزادت كراهية الشعوب لهم .

ومع أن التحول البروتستانتى فى المسيحية الغربية ، ثم عصر التنوير والثورة الفرنسية قد منحهم الحرية ، وأعطاهم حق المواطنة ، إلا أنها كانت منحة منقوصة ، لأنها اصطدمت بظهور الروح القومية الصارمة فى أوربا ، المعضدة ببحوث (جوينو) فى الأعراق ، ثم نظرية (دارون) فى أصل الأنواع ، وأفكار (نيتشه) عن الإنسان الأعلى Superman .

وإذا كانت الليبرالية الغربية قد بلغت منتهاها فى القرن ١٩م وجعلت القوميات تقتصر على الشعوب الأوربية وحدها ، فقد كان رد الفعل العملى لهذه القومية الغربية ، أن يجعل اليهود لأنفسهم قومية خاصة على غرار القومية الأوربية ، تأخذ شكلها العنصرى فى ظاهرها ، أما باطنها فيحتوى الموروث اليهودى بكل ما يحتويه من أنانية تورانية ، وحتى العلمانيين من اليهود لم يكونوا منفصلين عما أحدثته اليهودية الحاخامية من أزمات دينية فى تكوين اليهود النفسى والعنصرى ، ولهذا فقد كان انتقالهم من وضعهم كمجموعة دينية فى المجتمع الأوربى إلى وضعهم الجديد كمواطنين فى المجتمع الحديث لم يؤد إلى استقرارهم ، ولم ينجحهم من عدم إحساسهم بالغربة داخل أنفسهم، إلا تحولهم إلى ما سسمى « المشكلة اليهودية » داخل المجتمع الغربى « وإذا كان المثل الأعلى فى التأثير فى الغرب ، تحويل الفرد اليهودى إلى برجوازى غربى يدين باليهودية فى القرن ١٩ ، فإن المثل الأعلى البديل له ، هدَفَ إلى تجميع اليهود من الشتات فى دولة قومية « (١) تلك التى لم تكن إلا انعكاساً للفكر القومى الأوربى ، واستجابة له .

(١) فؤاد محمد شبل : مشكلة اليهود العالمية ، ص ٨٢ .